يوسف وهبى: سنوات المجد والدموع

عرض وتقديم
نوال علي محمد
باحثة بمركز الخدمات الببليوجرافيا

راشد، راوية.
يوسف وهبى: سنوات المجد والدموع/ بحث وتأليف راوية راشد؛ تقديم كمال رمزى؛ تصميم الغلاف رجائي عبدالله . ــ دار الشروق، ٢٠١٦. - ٢٥٥ص ؛ ٢٤سم.
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية
تدمك ٩ - ٣٣٩٠ - ٠٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

نبذة عن المؤلفة :

رواية راشد إعلامية وصحفية مصرية اشتهرت بتقديم برنامج "خلف الأسوار" ؛ أول برنامج حوادث يذاع على التليفزيون المصري. صدرت لها رواية "هوس البحر" عام ١٩٩٠م وحصلت عنها على جائزة الدولة التشجيعية، ورواية "صمت الريح" عام ١٩٩٢م التي كشفت جوانب غامضة من أسرار حياة أحد الضباط الأحرار، بالإضافة إلى كتاب "شخصيات وعواصف" عام ١٩٩٩م، والذي كشفت فيه عن شخصيات مبدعة في عالم الشعر والرواية والفن التشكيلي. تحول كتابها "نازلى ملكة في المنفى" الصادر عام ٢٠٠٨م إلى مسلسل تليفزيوني. صدر أول عمل مسرحي لها عن حياة شيخ المتصوفة "جلال الدين الرومي" عام ١٩٩٧م، وتمت ترجمته إلى الإنجليزية عام ٢٠١٠م.

هذا الكتاب ممتع ومفيد، بطله ليس من صنع الخيال أنه صاحب اسم له رنين. امتد حضوره إلى ما بعد رحيله، أصبح جزءًا نابضًا بالحياة في ذاكرة الجميع. عاش حياته محاربًا، مقاتلاً تذوق حلاوة النجاح، الانتصار، ثم مرارة الفشل، الهزيمة، لكن بإرادة من فولاذ ينهض، يبدأ مشواره من جديد. يوسف وهبي لم يكن حلمه أن يغدو ممثلا مرموقًا وحسب، بل أن ينشىء مدينة كاملة للفنون، اختار لها اسمًا مصريًا فرعونيّا يعبر عن نزعة وطنية ترنو إلى إثبات الذات فى مواجهة الاستعمار .. عنوانها "رمسيس".

يوسف وهبي – فى عيون المؤلفة – صاحب آمال عظيمة تبدو بعيدة المنال، لكنها بفضل إرادته التى لا يحدها حدود بالإضافة لاستعداده للتضحية بثروته استطاع – بالعمل الذي يبلغ فى جديته حد الصرامة – أن يبني "مملكة رمسيس" إن صح التعبير.

لكن مثل كل الممالك، تعرضت مؤسسة يوسف وهبي لانهيار مدوٍّ فى أواسط الثلاثينيات، بسبب الأجور المرتفعة التي تدفع للممثلين، بالإضافة إلى بذخ الإعلانات والديكورات، ثم نمط الحياة التي يعيشها صاحب الفرقة الذي دخل في منازعات مدمرة مع زوجته إثر طلاقها، سليلة العائلة الكبيرة، واسعة النفوذ عائشة فهمى.

كل هذه الأمور، أدت إلى تعثر مشروع "مدينة رمسيس"، ثم استيلاء أحد البنوك على مسرح رمسيس عقب إعلان إفلاس يوسف وهبي.

التاريخ، الأحداث، المواقف، لا تتوالى في الكتاب على نحو سردي بارد، لكن تأتي نابضة بالحياة والحيوية. فالكتاب يقدم بانوراما عريضة لمعاصرى يوسف وهبي، من أمثال عزيز عيد، روزاليوسف، نجيب الريحاني، أمينة رزق، فضلاً عن طابور طويل، لكل منهم ملامحه الفنية

والنفسية المستقلة. فالكاتبة حاولت بدأب وجدية رصد ملامح شخصيته، سبر أغوارها، علاقتها مع بطل الحكاية سواء بإيجابياتها أو سلبياتها.

فالكاتبة تواصل متابعة مشوار يوسف وهبي، رابطة بين الخاص والعام، التاريخ الشخصي، والتغيرات الموضوعية، بمفاجآتها العاصفة. فبعد نهوض يوسف وهبى من عثرته، تندلع الحرب العالمية الثانية لتطفىء أضواء جميع المسارح، لكن يوسف وهبي بطاقته الكبيرة يقبل التحدي، متجها بكل قواه لعالم الأطياف منغمسًا في صناعة الأفلام، مؤلفًا مخرجًا ممثلاً، يحقق نجاحًا مدويًا، وبعضها يتعرض لفشل ذريع، يؤجج عنده "غريزة التحدي" إن صح التعبير، روايته عن بطل "المجد والدموع" مشوقة، نافذة النظر، لا تخلو من انتقادات موضوعية لكنها مكتوبة بمداد المحبة.

ومن يقرأ: مذكرات "يوسف وهبي"، و"روزاليوسف" و"فاطمة رشدي" و"محمد التابعي" و"فتوح نشاطي" و"محمد عبدالله"، سيقترب من ملامح الحياة الفنية في مطلع القرن الماضي وتأثيرها على الحياة الاجتماعية في زمن اشتعلت فيه ثورة ١٩١٩م، وتأجج فيها الحس الوطني؛ حيث ارتفعت الحناجر تنادي بحرية بلادهم وهي تغني للشيخ سيد درويش "قوم يا مصري"، وكان لابد أن يتغير المجتمع، وكان لابد أن يثور ابن عبد الله باشا وهبي وأن يحترف التمثيل ضاربًا عرض الحائط بكل القيم والتقاليد التي أحاطت بعصره وحياته.

والغريب أن المسرح بمفهومه البسيط فى مطلع القرن الماضي قد سحر من اللحظة الأولى يوسف وهبي، من خلال الفرق الجوالة التي كانت تقدم عروضها في قرى ونجوع مصر؛ حيث كان الناس يتجمعون ليشاهدوا المشخصاتية بملابسهم الغريبة وهم يصرخون بأعلى أصواتهم بعبارات غير مفهومة، فقد كان التشخيص أكثر جذبًا لهم من فنون خيال الظل التي كانت سائدة فى ذلك العصر.

ولكن ما الذي يجعل طفلاً فى الثامنة من عمره، أبوه كبير مفتشي الري في أسيوط ، يقرر أن يصبح مشخصاتيًا مثل الذين شاهدهم فى فرقة "أبو سليم القرداحي" التي زارت المدينة؟

الإجابة لم يذكرها يوسف وهبي في مذكراته ، لكنها كانت واضحة تماما في كل كلمة نطق بها، لقد أحب المسرح ووقع في أسره فحول مجرى حياته من شاب يعده أبوه ليكون طبيبًا إلى مجنون الفن وثائر على أسرته ومجتمعه ونفسه ، لتعصف به الريح في طريق طويل وصفه هو في مذكراته بأن طوله "ألف عام".

كانت فرقة "سليم القرداحي" هي بداية الحلم الذي عاشه يوسف وهبي سنين حياته، وكأن المسرح هو الذي اختاره من بين الآلاف ليكون

مؤسسًا لعصر جديد في الفن الذي عاش له وضحى بالكثير من أجله للدرجة التي دفعته إلى تبديد ثروته التي ورثها عن أبيه ليقيم مسرحًا حديثًا على غرار مسارح أوروبا، وهو "مسرح رمسيس"، وليقدم فنًا رفيعًا قلب كل الموازين الفنية التي كانت سائدة في عصره.

لقد حاولت الكاتبة أن تفهم عالم يوسف وهبي، وعوالم من عاصروه، فوجدت أنها تغوص فى تاريخ فن المسرح أيامه ولياليه، فلم يكن المصريون يعرفون فن المسرح قبل دخول الحملة الفرنسية إلى مصر عام "١٧٩٨م"؛ فقد أقام الفرنسيون بعض دور الترفيه على حديقة الأزبكية مثل دار "تيفولي"، وكانت مكانًا فسيحًا يطل على البركة الكبيرة في الحديقة وبه قاعة عزف للرقص، وقاعة للعب القمار، ومقصف لتناول المشروبات ، وكان المكان محرمًا على المصريين الذين يقاطعون كل الأماكن الفرنسية كنوع من المقاومة ضدهم .

وفى نفس الفترة (١٩١٠-١٩١٩م) ظهر نجيب الريحاني يكتب ويمثل بعض الأدوار الهزلية التي تتخللها وصلات من الرقص والغناء، ولم يكن معروفًا حتى قدم شخصية الفلاح الساذج "كشكش بيه" الريفي البسيط الذى يتكالب عليه بعض النصابين فيستولوا على الثروة التي جناها من بيع محصول القطن ليعود إلى قريته بعد ذلك خالي الوفاض بعد أن بدد ثروته في الصالات والكباريهات .

فى نفس الفترة التي انتشرت فيها تلك العروض الغنائية الاستعراضية أتى جورج أبيض إلى مصر، وبدأ فى تكوين فرقته المسرحية؛ حيث قدم أعمالاً مترجمة عن الروايات الأجنبية التراجيدية لـ "شكسبير"، وكان أداؤه غارقاً فى الميلودراما ومبالغًا فيه، ورغم ذلك فقد جذب مسرحه جمهورًا كبيرًا من محبي الفن الجاد.

لم تكن الطفولة مثيرة لطفل في السابعة من عمره يعيش مع أسرته في مدينة سوهاج في صعيد مصر، خاصة بعد أن ترقى والده وأصبح كبير مفتشي الري، وحصوله على لقب الباشوية، تقديرا لجهوده ونجاحه الباهر في شق ترعة للري تمتد من بحر يوسف إلى غرب الفيوم، والتي كانت سببا في تحويل صحراء الفيوم إلى آلاف الأفدنة الزراعية؛ حيث كان القانون السلطاني يفرض على من يقوم باستصلاح أراضي صحراوية أن تؤول نسبة من الأراضي المستصلحة إلى صاحب المشروع تشجيعًا لأصحاب العقول المستنيرة من أبناء مصر، على أن تحتفظ الدائرة السنية بالمساحة المتبقية لتنضم ضمن الأملاك السنية.

وبعد نجاح يوسف في الشهادة الابتدائية انتقلت العائلة للسكن في حي المنيرة؛ حيث بنى والده بيتًا كبيرًا أشبه بفيلا كبيرة تحيطها حديقة كبيرة، وتقع وسط منازل يقطنها بعض الباشوات

ورجال الدولة، وكانت من عادة تلك القصور أن تقيم حفلاً شهريًا للأصدقاء والأحباء كنوع من الترفيه والتعارف؛ حيث يستقبل البيت فى الصباح السيدات، فتقدم المشروبات والعصائر والفطائر حتى يحين موعد الغداء، فتقدم ربة البيت الطعام والحلوى، وتستمر المأدبة حتى موعد أذان المغرب؛ حيث تنسحب النساء ليعد الخدم المكان لحفل الرجال الذي كان عادة ما يبدأ في الثامنة مساءً.

وفى المدرسة السعيدية التقى يوسف بفكري، وعزيز أباظة، ومختار عثمان، ومحمد عبد القدوس، ونشأت بينهم صداقة قوية، وكان يوسف معروفًا بين أقرانه بقوة البنيان وضخامة الصوت؛ لكن حسه الفكاهي كان دائمًا يغلب على أي تعليق يقال، حتى انهم كانوا يطلقون عليه المهرج، هذا اللقب الذي حوره فيما بعد ليطلق على نفسه (المهراجا) في المدرسة، بينما ينشغل الجميع في حصص الياقة البدنية ، نجد يوسف مشغولًا برفع الأثقال وتقوية العضلات، مما أهله للالتحاق بفرقة المصارعة؛ حيث برع فى هذه اللعبة وأصبح ضمن فريق المصارعة على مستوى المدارس الثانوية، أما حبه للتشخيص أو التمثيل فقد هيأه ليكون رئيسًا لفرقة التمثيل بعد أن أقنع مدرس اللغة الإنجليزية "مستر سميث" بأن أداء المسرحيات المقررة فى المنهج بشكل تمثيلي سيزيد من فهم الطلاب لفحواها ويساعدهم على دراسة أشخاصها، وبالفعل أصبح يوسف المسؤول عن الفرقة وعن توزيع الأدوار، وكانوا يقدمون عروضًا هزلية لرواية "مكبث" أو "عطيل" في فناء المدرسة وسط ضجيج الطلاب وسخريتهم حتى قرر مدير المدرسة إعفاء فرقة التمثيل من أداء مهمتها.

يسرد يوسف وهبي فصلاً كاملاً يصف فيه حبه لرياضة المصارعة، وكيف أهله طوله الفارع، وضخامة حجمه – منذ أن كان فى الخامسة عشرة لتلك الرياضة وكان يدربه المصارع المعروف في ذلك الوقت عبد الرحيم المصرى ، الذى خصص له كل يوم خميس وجمعة للتدريب في "نادي أنصار القوة" – للتدريب على المصارعة ورفع الأثقال؛ حيث فاز بكل البطولات التي اشترك فيها.

ثم اندمج يوسف في جو شارع عماد الدين مما أدى إلى إهماله للدراسة، وعندما حان امتحان البكالوريا كان يعرف هو وصديقه مختار عثمان أنه لا أمل في اجتياز الامتحان، وكانت النتيجة هي رسوبه بجدارة، فى الوقت الذي عاد شقيقه إسماعيل من فرنسا بعد حصوله على إجازة الحقوق بتفوق، مما زاد من حنق والده عليه. حاول يوسف في البداية أن يخفي نتيجة البكالوريا عن والده ففشل، وثار الأب ثورة عارمة ونعى حظه العاثر لأنه أنجب ابنًا فلتانً، وأقسم أن يبعده عن مدينة القاهرة وملاهي

وأجواء شارع عماد الدين فأجبره عى الالتحاق بالمدرسة الزراعية بمشتهر بقرية طوخ على أن يلتحق بالقسم الداخلي، وطلب من مدير المدرسة ألا يسمح له بترك المدرسة إلا مرة واحدة كل شهر لزيارة العائلة.

كان محمد عبد القدوس قد انتهى من امتحان البكالوريا والتحق بأحد المعاهد الصناعية وتخرج فيها، وعمل مهندسا في وزارة الأشغال، وكان يعيش حياة هانئة في حي السكاكيني مع زوجته الرقيقة روزاليوسف وابنه إحسان، وعندما زاره يوسف حسب الموعد المتفق عليه وجد عنده عزيز عيد الذي كان متحمسًا لفكرة إنشاء فرقة مسرحية تنافس "كشكش بيه"، والغريب أن عزيز هو الذي أخرج رواية "كشكش بيه" وسمح للخواجه إستيفان روستي أن يضع لمساته، ولم يعترض كمخرج على تلك الملاحظات، وبعد نجاح الرواية اصطدم مع نجيب الريحاني وقرر فجأة التخلي عن كشكش ومشمش، كما كان يطلق على كل من الريحاني وإستيفان، ونكاية بهم قرر تكوين فرقة من الوجوه الجديدة تمامًا ليصنع منها نجومًا يهزم بها هؤلاء المشاهير المغرورين ، فاقترح عليه محمد عبد القدوس اسم شاب مجنون بالفن كان صديقه فى المدرسة فرحب به عزيز كنوع من التحدي، وكان هذا الشاب هو يوسف وهبي، واتفقا أن يلتقيا فى منزل عبد القدوس فى السكاكيني.

وقد التحق يوسف بمعهد "فيلو دراماتيكا ميلانو" ودفع أول قسط من المصاريف الدراسية من النقود التي جمعها طوال العام أثناء تنقله من عمل إلى آخر، ساعدته التوصية التي كتبها الممثل الشهير "كيانتوني"، وقرر أن يتخلى عن كل المغامرات العاطفية وغير العاطفية ليتفرغ لدراسته كي يحصل على دبلوم المعهد في ثلاث سنوات ويعود إلى مصر ليكفر عن أخطائه السابقة، ويرد اعتباره أمام والده ويثبت له أن مهنة التمثيل مهنة لها اعتبارها ومكانتها في العالم المتحضر.

انتهى يوسف من امتحان السنة الثانية وقرر السفر إلى بحيرة "ماجيوري"، وكانت ملتقى الفنانين في إيطاليا، يأتي إليها نجوم السينما والمسرح لقضاء الصيف، وقبل أن يسافر كان قد ساعد صديقه مختار عثمان على الالتحاق بمعهد الـ "أومانتيريا" مثلما فعل كي يتقن اللغة ويتعلم حِرفًا تعاونه على الدراسة فيما بعد، وقبل أن يستعد يوسف للعودة إلى القاهرة وصلت برقية إلى يوسف تبلغه أن والده على فراش الموت. ولكن للأسف الشديد لم يصل في الوقت المناسب فقد فارق أبوه الحياة قبل وصوله بيومين، وبعد انتهاء فترة الحداد، خرج يوسف إلى حياته المعتادة للسهر في شارع عماد الدين، كانت معظم الفرق قد أغلقت مسارحها من أثر الحرب، وكان الجو العام يعاني حالة من اليأس إثر إعلان إنجلترا الوصاية على مصر عام

١٩١٤م، كانت الفرق تعاني بصعوبة من الاستمرار في العمل المسرحي، ولم يبق على الساحة سوى بعض الفرق الغنائية التي كانت تقدم مشاهد تمثيلية غير مترابطة يتخللها فقرات راقصة، وكان من أهمها فرقة عكاشة التي تعرض على مسرح الأزبكية بعد تجديده بدعم من طلعت باشا حرب، وكان الأخوان زكي وإبراهيم عكاشة ضمن بطانة الشيخ سلامة حجازي، وبعد أن أغلق الشيخ سلامة فرقته أثناء الحرب العالمية الأولى كون الأخوان عكاشة فرقة جديدة تحمل اسمهما، وكان زكي يتمتع بصوت جميل ساعده على غناء المشاهد المسرحية الطويلة، وقد جذبت فرقة عكاشة جمهورًا عريضًا من محبي الغناء؛ حيث كانت تقدم بعض الأوبريتات الغنائية مثل "الليالي الملاح" و"السلطان الحائر" وغيرهما من الروايات التي كان يؤلفها عباس علام، أو توفيق الحكيم ويلحنها داود حسني، وزكريا أحمد.

وكان يوسف وهبي على قناعة برسالة الفن وقدرته على تغيير المجتمع، وإذا كان يوسف وهبي لم يمارس السياسة في الحياة فقد مارسها بالفن، ولا أحد ينكر أعماله الوطنية الناجحة مثل: مسرحية "الاستبعاد" التى نكل فيها بممارسات الاحتلال البريطاني لمصر، ومسرحية "سبعين سنة" التي قدمها تحية لزعيم الأمة سعد زغلول، وفيلم "الخيانة العظمى" الذى تدور أحداثه عن قضية الأسلحة الفاسدة، وغيرها من الأعمال المسرحية والسينمائية التى تعد علامات بارزة في تاريخ السينما والمسرح المصريين.

وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليه اتهمه البعض بموالاته للملكية، وحسبوه على قائمة العهد البائد، خاصة أنه كان يحمل لقب البكاوية، وتم تهديده بالطرد من الفرقة القومية، لكن ثورة يوليه كانت مدركة لقيمته وقامته، ولم يتمكن أعداؤه من تنفيذ مخططاتهم، بل منحه الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٤م وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى تقديرًا لمسيرته، وفى عام ١٩٧٠م منحه الرئيس السادات الدكتوراه الفخرية في الفنون هو، والموسيقار محمد عبد الوهاب مقرونًا بلقب "فنان الشعب"، كما أمر الرئيس السادات أن تسجل جميع أعماله المسرحية في التلفزيون لتحفظ من الضياع تقديرًا لتاريخه الفني.

وحصل يوسف وهبي أيضًا على أكثر من تكريم في العالم العربي، فقد حصل على وسام الشرف من الملك محمد الخامس ملك المغرب، ووسام الأرز الذهبي من لبنان، ووسام الفنون من الدرجة الأولى من الملك حسين في الأردن، ووسام الشرف من الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، وكرمته سفارة إيطاليا في القاهرة ومنحته وسام "كومينداتوري"، وهو وسام يعادل وسام فارس بدولة إيطاليا .

وقد سافر يوسف وهبي إلى جنيف للعلاج

من صعوبة النوم عام ١٩٧٤م، وهناك قال له الطبيب السويسرى: "إن سنين حياتك بكل تفاصيلها تفوق قدرة العقل على وقف شريط الأحداث فيستعيدها بدون إرادتك أثناء النوم فتصاب باليقظة، ولا بد أنك عشت أحداثًا كثيرة".

فرد عليه يوسف وهبي قائلاً: "لقد عشت ألف عام"، وفي السنوات الأخيرة اعتزل يوسف وهبي الفن والناس، ولم يبق إلى جواره إلا زوجته سعيدة هانم، التي عاشت معه أكثر من خمسين عامًا، والتي لم تترك يده، لا في لحظات الوهج والتألق، ولا لحظات الغروب والانزواء، لقد تفهمت سعيدة منصور طبيعة يوسف وهبي، وعرفت أنه يعشق الحياة والأضواء ونظرات الأعجاب وما يتبعها من رغبات، لكنها كانت على يقين من حبه لها وتقديره لتضحياتها، وقد استطاع يوسف وهبي أن يعيش بقية حياته فى مكان ينعم فيه بالهدوء والسعادة بعيدًا عن أعين المتطفلين، كي ينتهي من عمله ويهرع إلى صومعته، يقرأ ويكتب ويترجم ليخرج ويمثل أعماله السينمائية والمسرحية الرائعة، وقد احتوت مكتبته على عدد من أفلامه التي مثل فيها أو قام بإخراجها ومنها: فيلم "ليلى بنت الفقراء"، وفيلم "شمعة تحترق"، وغيرهما من الأفلام التي قام بإنتاجها وإخراجها، وعندما تجاوز الستين وضاقت به الحياة كان يؤجر المكان لبعض المنتجين ليصوروا أفلامهم في بيته مثل فيلم "إشاعة حب"، وفيلم "الخروج من الجنة"، وفيلم "غرام الأسياد".

وفي الشرفة الصغيرة المطلة على حديقة بيته يجلس صامتًا يتذكر الأفراح والأحزان، ويتذكر لحظات الزهو ولحظات الانكسار راضيًا بكل ما قام به، يستمع إلى أصوات الملايين الذين أحبوا فنه فيبتسم بين الحين والآخر، أو يستغرق في صمته إذا ما عبرت على ذهنه لحظة من لحظات الألم فيستسلم لقطرات الدمع المنسابة على وجهه، وكانت زوجته المحبة تجلس أمامه، تمسك بيده تارة وتبتسم في وجهه تارة، والصمت يجري بينهما نهرًا محملاً بكل اللحظات بحلوها ومرها.

وفي يوم السابع عشر من أكتوبر عام ١٩٨٢م يرحل عنا يوسف وهبي، وفي مشهد جماهيرى مهيب تشيع جنازته؛ حيث تتقدم أوسمته ونياشينه بما يليق بمكانته كـ "فنان الشعب"، وتتجمع الجماهير الغفيرة لوداعه إلى مثواه الأخير كأنهم يحتفلون معه بكل ما قدمه طوال مشواره الفني على مدى أكثر من خمسين عامًا، لم يكن الوداع سهلاً لكنه ظل حاضرًا بقوة من خلال أعماله الفنية التي أصبحت جزءًا عزيزًا وفريدًا في تاريخ فننا المسرحي والسينمائي المعاصر، وفي أذهان عشاق فنه عميدًا ومؤسسًا وإنسانًا.

والكتاب إضافة جيدة لمقتنيات المكتبات العامة.